قلعة هيت نموذج يعكس روعة العمارة العسكرية

أ.د خليل حسن الزركاني
رئيس مركز احياء التراث جامعة بغداد

المقدمة

ترتبط العمارة العسكرية الإسلامية بالتّاريخين السياسي والعسكري لدولة الإسلام التي شهدت فترات متنوّعة من طبيعة العلاقات الداخلية والخارجية. ففضلاً عن الحروب والمعارك الطويلة التي شهدتها منذ بداية عصر الفتوحات الإسلامية، كان على دولة الإسلام أن تدخل في طور التّحدي الكبير لتثبيت أمن وأمان الدولة والدفاع عن حدودها ضدّ القوافل الداخلية التي كانت تنبعث بين حينٍ وآخر بحكم التنوع الكبير الذي ضمّته هذه الدولة من شعوبٍ وبلدانٍ وأعراقٍ وديانات وما ينجم عن ذلك من بقاءٍ كامنٍ لنزعاتٍ وأهدافٍ وغاياتٍ تحاول التعبير عن ذاتها من حينٍ لآخر.

تفنّن المسلمون في إنشاء تحصيناتهم الدفاعية لحماية الدولة من هجمات الأعداء والتّصدي لهم، فبنوا على طول الحدود تحصيناتٍ أطلقوا عليها إسم "الأربطة"، وهي أبنية عسكرية تُمثّل خطّ دفاع متقدمًا عن البلاد، حيث كان يقيم فيها الجنود وعائلاتهم بشكلٍ دائمٍ، فيمارسون في حياتهم الدينية والمدنية إضافةً إلى استعدادهم وجاهزيتهم الدائمة لمواجهة أيّ عدوانٍ خارجيٍ أو السيطرة على أيّ فتنةٍ أو خلخلةٍ داخليةٍ.

تُبنَى الأربطة على هيئة نسقٍ معماريٍ مُتماثلٍ. فيغلب على تخطيطها الأشكال المستطيلة، الجدران الحجرية المنتظمة، المزدوجة المزوّدة بالأبراج الدفاعية. أمّا في الداخل، فكان هناك فناء واسع تحيط به غرف لسكن الجنود ومسجد ومَرافق عامة.
والشّكل الآخر من التحصينات العسكرية كان يشمل الأسوار العالية المدعّمة بالأبراج والمُجهّزة بوسائل الدفاع والمراقبة. وقد بُنِيَت هذه الأسوار غالبًا حول المدن لحمايتها وصدّ الحصارات عنها. ويُعَدّ السور من أهم الأبنية العسكرية التي أنشأها المسلمون في مدنهم.

كان لطبيعة الأرض والمكان والموقع الدّور الأساس في تحديد شكل السور. ولكن السّمات في الأسوار كانت تتمثّل في وجود الأبراج المُجهزة بنقاط المراقبة ومرامي السهام والنوافذ لقذف السوائل المُحرقة. وهناك نقاط متعددة من السور جعلت فيها أبواب مُحكّمة الإغلاق، يحميها برجان أو تكون ضمن برجٍ واحدٍ. ويعود ذلك لأهميّة الباب وما يشكّله من نقاط قوةٍ وضعفٍ.

العمارة الحربيّة في دار الإسلام

تعرّضت الدولة الإسلاميّة لهجمتين شرستين عاتيتين، جاءت الأولى كالإعصارمن الشرق، وتولّى كبرها المغول بقيادة تيمورلنك وهولاكو من بعده، فجاسوا خلال الديار، وقوّضوا دولة بني العباس وحواضر الشرق الإسلامي، وقضوا على الحضارة الإسلاميّة العظيمة في بغداد عاصمة الخلافة ودمروها.

وجاءت الهجمة الثانية كالسيل من الغرب على شكل حملات صليبيّة متعاقبة، إلا أنّ قادة المسلمين وأمراءهم لم ييأسوا ولم يقنطوا، ونهضوا للدفاع عن دار الإسلام بشجاعة، وهبّوا لدفع الأخطار بجسارة، واستطاعوا تحويل الهزيمة إلى نصر ساحق في عين جالوت بقيادة المظفّر قطز، والظاهر بيبرس، وكذلك استطاع صلاح الدين يوسف بن أيوب توحيد الأمّة، والقضاء على أسباب الفرقة، وتحصين المدن الإسلاميّة، برفع أسوارها، ونصب أبراجها، وإحكام أبوابها، وبناء الحصون، والقلاع، والثغور المحصّنة على حدود الدولة من جهة البر والبحر، حتى تحرّرت القدس من الصليبيّين.

ولم تكن الأندلس وحواضر العالم الإسلامي في المشرق والمغرب بمنأى عن العدوان الخارجي الحاقد، ومن أجل ذلك لم يتوانى المسلمون عن إعداد القوّة، وإرهاب الأعداء المتربّصين.

العمارة الحربيّة من الناحية الفنيّة:

اكتسبت الأسوار التي بنيت في دار الإسلام، والإضافات التي أضيفت على الأسوار القديمة، طابعاً إسلامياً خالصاً، ولا تزال العمارة الحربيّة الإسلاميّة الباقية تشهد للمسلمين بهذا التميّز في أسلوب البناء.

وشيّدوا الأبراج المربّعة، ويتألف البرج من نصفين أدنى مصمت، ونصف أعلى تشغله غرفة تعلوها في بعض الأحيان غرفة أخرى أعدّت للدفاع، وفتحت فيها منافذ للسهام، ويرتقي الراقون درجاً في داخل البرج يفضي إلى أعلاه، بحيث يشرف على الأسوار جميعاً، ويدور بأعلى البرج شرفات، ودار مستطيلة الشكل (١)

وجعلوا للسور الأمامي سوراً آخر أمامي على شكل الحزام، يبلغ ارتفاعه نصف ارتفاع السور الأساسي، مثل سور قرطبة، ليعيقوا عمليّة نقب الأسوار الأساسيّة، ومباغتة المدافعين، وإفشال الهجوم.

ودعموا النظم الدفاعيّة أمام خطر الغزو الخارجي، فشيدوا الأبراج البرانيّة للاستطلاع ومراقبة تحرّكات العدو، ومنعه من اقتحام الحصون والمدن، وربطوها بالقلاع أو الأسوار بممرّات سريّة، وشحنوها بالجنود، كمفرزة متقدّمة في الجيوش الحديثة، مثل قلعة المرقب بالساحل السوري.

وأقاموا نظام التخوم في الثغور، وحول التحصينات الحربيّة التي كانوا يبالغون في شحنها بالمرابطين والمجاهدين المسلّحين، وارتكز الدفاع عن الأندلس من هجمات المغيرين على ثلاث قلاع عند سرقسطة وطليطلة وماردة، ارتبط بكل منها منطقة تخوم.

اتخاذ الأبراج لمراقبة تحرّكات العدو:

واتخذ المسلمون الأبراج لمراقبة تحرّكات العدو قبل اقترابه، وتنقل المصادر أنّ الحجّاج بن يوسف الثقفي بنى المناظر بينه وبين قزوين وكان إذا دخّن أهل قزوين دخّنت المناظر إن كان نهاراً، وإن كان ليلاً أشعلوا نيراناً فتجرّد الخيل إليهم فكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط، فكانت قزوين ثغراً حينئذ.
وكانت الأربطة تقوم بمهمّة حراسة السواحل، وحمايتها من الغارات البحريّة المفاجئة، أما المرابطون فكانوا يعيشون حياة زهد وتقشّف وعبادة وذكر، تحت إشراف شيوخهم من الفقهاء والمتصوّفة،

وكانت الحراسة من صفات المرابطة، وغالباً ما كان يلحق بالأربطة منارات أو طلائع، لاكتشاف العدو قبل اقترابه من الساحل بمسافة بعيدة، وتحذير سكان المدن الساحليّة من خطر الأساطيل المعادية، واستنفار المسلمين لقتالها.

وذكر ابن بطوطة أنّ الغرناطيّين قاموا بوضع سلسلة من التحصينات على سواحلهم، وخاصّة أبراج الطليعة، ووضعوا في قمّتها ناظور البرج، وكانت مهمّة الناظور تنبيه الحامية الساحليّة إذا أغار الأعداء بإثارة الدخان في النهار، وإضرام النار في الليل.

وذكر الخطيب أنّ الحاجب رضوان شيّد أربعين من هذه الأبراج، في عهد يوسف الأول، على امتداد الساحل بين بيرة وغرب مملكة غرناطة.

وكانت أسوار المدن المفتوحة تتوسّع مع التوسّع العمراني للمدن التي ينزلها المسلمون، كما حدث في مدن الأندلس.

وكان المسلمون يحفرون الخنادق حول أسوار المدن والقلاع مبالغة في التحصين من خطر الأعداء، تيمّناً بخندق المدينة المنوّرة، ويملأونها أحياناً بالماء عند الإحساس بالخطر، كخندق بغداد، وخندق واسط، وخندق قلعة صهيون، قرب اللاذقية.

وذكرت (هونكه) في كتابها شمس الله على الغرب أن الصليبيّين حملوا معهم من الشرق أساليب بناء الأبراج الحجريّة والمعدّات الحربيّة التي أدخلت عليها، ومن هذه الوسائل: المداخل المستديرة التي تعرقل وتعطّل القوّة الهجوميّة للعدو، وكذلك الخوارج للدفاع، فمثلها كمثل الأبراج القائمة في الحوائط، إذ هي تمكن من القيام بهجوم أو دفاع جانبي، أما الخوارج الدافقة فقد أقبل عليها الأوروبيّون إقبالاً عظيماً، فهذا النوع من الخوارج، عربي أصيل جاهلي، وهو عبارة عن حوامل تبرز من الحائط، وفوقها مبنى يشبه الشرفة، وفي أرضه فسحة يدفق منها على العدو الزيت الحار الساخن أو القار، وقد أحضر الصليبيّون معهم من الشرق علاوة على ما ذكر، عادة تغطية الأبراج بخوذات من الحجر، وهي التي تتدرّج من مربّعات إلى مثمّنات، ثم إلى دوائر.(٢)

ومن التدابير العسكريّة التي اتخذها صلاح الدين وأمراؤه، ربط مدن مصر الإسلاميّة الثلاث الفسطاط، والقطائع والقاهرة بسور واحد ليسهل عليهم الدفاع عنها، وتشييد قلعة الجبل على هضبة صخريّة منيعة، وحفر خندقها في الصخر، زيادة في التحصين، وبناء مسجد جامع لرفع المعنويّات بالمواعظ والخطب.

وقام خلفاء صلاح الدين من بعده، بجهد محمود في تحصين مدن مصر، وخاصّة الملك الصالح نجم الدين أيوب باني قلعة الروضة المعروفة بقلعة الجزيرة، وبقلعة الصالحية، وبقلعة المقياس، وكانت تحوي ستين برجاً وأسواراً شيّدت من الحجر، ومن الداخل كانت تشتمل على مسجد جامع وبساتين وقصور رائعة، كما شحنت بالسلاح، وآلات الحرب، وما يحتاج إليه من الغلال والأزواد خشية محاصرة الفرنجة.(٣)

ونظراً لأهميّة سيناء من الناحية العسكريّة فقد بنى الناصر صلاح الدين الأيّوبي قلعة محصّنة تحوي حجرات للجنود والمطابخ وردهة للتخزين تحت مستوى الأرض، ومسجداً وصهريجاً.

وعندما شيد المنصور العباسي مدينته المدوّرة دار السلام، أحاط بها أسواراً مزدوجة تؤلّف حلقتين متتابعتين لها أربعة أبواب، وهي باب خراسان، وباب البصرة، وباب الكوفة، وباب الشام، وبنى الخليفة في وسط المدينة قصره وجامعه، ليمثل القصر عاصمة الإمبراطوريّة، والمركز الذي يتجه إليه الشعب.(٤)

ولمّا ورد الرحّالة ناصر خسرو القاهرة ذكر أنّ لها خمسة أبواب: باب النصر، وباب الفتوح، وباب القنطرة، وباب الزويلة، وباب الخليج، وليس للمدينة قلعة ولكن أبنيتها أقوى وأكثر ارتفاعا من القلعة وكل قصر حصن ومعظم العمارات تتألف من خمس أو ست طبقات.(٥)

ولم يغفل المسلمون عن شحن قلاعهم بالرجال المدرّبين الأشدّاء، وخزائن السلاح، وصهاريج المياه، وإهراءات الحبوب، لتصمد فترات طويلة في وجه الأعداء المحاصرين.

ابتكارات المسلمين في فن العمارة الحربيّة:

يعود للمسلمين الفضل في ابتكار كثير من الأساليب الفنيّة، والإبداعات العمرانيّة الحربيّة، فقد أضاف المسلمون إلى أبواب الأسوار الخارجيّة أبواباً داخليّة موازية لها، للمبالغة في إحكام إغلاق هذه الأبواب.

وابتكر المرابطون عند بنائهم لسور إشبيلية نظاماً جديداً، ذلك أنّهم أكثروا من الزوايا الداخليّة والخارجيّة فيه، بحيث يتخذ شكل خطوط متعرّجة متكسّرة ليسهل عليهم القضاء على الأعداء المهاجمين، والفتك بهم.

وجعلوا في الجدران الصماء للحصون والأبراج فتحات موشوريّة لإطلاق السهام على الأعداء، وحماية المدافعين عن الموقع الحربي.

واستخدموا الزيت المغلي لصبّه على رؤوس الأعداء المهاجمين من فتحات معدّة لهذا الغرض فوق أبواب الحصون والأسوار، عند محاولة اقتحامها.

وكانت الحصون في معظم الأحيان تشتمل على مخازن للطعام، وعلف للدواب، وعلى خزّانات للمياء، تكفي حاجة المحاصرين داخلها أشهراً عديدة، وتشمل أحياناً على قصور ودور، ومسجد جامع، وحوانيت، كأنّها مدينة صغيرة.

وبنى المسلمون فوق أسوار مدنهم دروباً، سمّوها ممشى السور، يسير عليها المدافعون عن السور.

وتوسّعوا في بناء الأبراج البرانيّة العالية القويّة، وتشييد أبراج المراقبة أو الطليعة، وخاصّة في بلاد الأندلس بعد اشتداد الخطر الشمالي عليهم.

العمارة العسكرية في الأندلس:

تعكس الأعداد الكثيرة للقلاع والحصون في الأندلس مدى الأخطار التي تحيط بها، وحرص الأندلسيّين على حمايتها من القوى الشماليّة المتربّصة بها، فقلّما تخلو منطقة مهمّة، أو مفترق طرق رئيسي، من قلعة أو حصن.

وذلك لأن حياة المسلمين في الأندلس الممتدة ثمانية قرون كانت في مجملها عبارة عن حروب ومعارك بينهم وبين بعضهم من ناحية بفعل العصبيّة والتنافس على الملك والرئاسة، وبينهم وبين النصارى من ناحية أخرى.

ويلخّص بعض المؤرّخين الإسبان تاريخ المسلمين في الأندلس مع الإسبان وحلفائهم من النصارى بأنّها معركة القرون الثمانية.

ذكر الأستاذ عادل بشتاوي في معرض حديثه عن القلاع العربيّة في إسبانيا، بأنّ عدد القلاع التي بناها الأندلسيّون بلغت ٤٠٠ قلعة، لم تبق منها اليوم سوى بضع قلاع، ولكنها على قلّتها تقدّم فكرة وافية عن فنّ العمارة العسكريّة وتفوقها على العمارة الإفرنجيّة.

ومن أشهر القلاع القائمة اليوم قلعة مقلة قرب غرناطة، وقلعة المريّة على الساحل الجنوبي، وقلعة مالقة، وقلعة المنكب، وقلعة المدور قرب قرطبة التي تعتبرأفضل نموذج للعمارة العسكرية الأندلسيّة المشادة على الصخر، وقلعة الوادي قرب إشبيلية، وقلعة الموت المطلة على مدينة القلعة الملكيّة على طريق قرطبة . وهي غير قلعة آلموت الإسماعيليّة المشهورة ..

وأشار إلى وجود أسوار وتحصينات وبوّابات من مختلف العهود الأندلسيّة في معظم المدن الرئيسيّة الجنوبيّة، مثل أسوار قصبة الحمراء في غرناطة، وأسوار الطرف الجنوبي من قرطبة، وبوّابات طليطلة، والمدينة الملكيّة، وغيرها.(٨)

الاهتمام بجمال القلعة إلى جانب حصانتها:

واهتم الأندلسيّون بحسن انتقاء موضع بناء قلاعهم، حتى لا تكون سجناً للمدافعين عنها، مع مراعاة الناحية الحربيّة، فعلى مقربة من إشبيلية قلعة جميلة رائعة هي قلعة جابر، وكثيراً ما يتفرج فيها أعيانها لحسنها في المروج والمياه وكثرة الطير منها، وفيها يقول الشاعر عامر بن خدوش القلعي:

إلا يا سقى الرحمن قلعة جابر فكم لي فيها من ليال زواهر

محلى الذي لا زلت اشدو بذكره إذا ما شدا مغرى بهند وساحر

فلله منها كل غصن وطائر ولله فيها كل خد وناظر

ضمنت لها أن لا تزال مدامعى على فقدها مثل السحاب المواطر

ووصفت قلعة خولان وكانت تتبع شذونية بالأندلس، بأنّها قلعة منيعة كالمائدة منقطعة ولها كروم وبساتين ونهر صغير وأهلها لهم رجلة وشدّة ولعبهم في أكثر الاوقات في ظاهر بلدهم بالرماح والسيوف.(٩)

وألّف الحجاري في قلعة بني سعيد لصاحبها عبد الملك بن سعيد: كتاب الطالع السعيد في حلى أعمال قلعة بني سعيد، وهو كتاب الصبيحة السعيديّة في حلى القلعة السعيديّة.

وقال الحجاري في وصف قلعة بني سعيد: عقاب الأندلس الآخذ بأزرار السماء عن غرر المجد والسناء وهي رباط جهاد وحصن أعيان وأمجاد وفيها يقول أبو جعفر بن سعيد:

إلى القلعة الغراء يهفو بي الجوى كأن فؤادي طائر زم عن وكر

هي الدار لا أرض سواها وإن نأت وحجبها عني صروف من الدهر

أليست بأعلى ما رأيت منصّة تحلّت بحلى كالعروس على الخدر

ها البدر تاج والثريّا شنوفها وما وشحها إلاّ من الأنجم الزهر

أطلّت علىالفحص النضير فكل من رأى وجهة منها تسلّى عن الفكر (١٠)

مدينة هيت

هِيْت مدينة عراقية تقع على الضفة الغربية من نهر الفرات إلى الشمال من مدينة الرمادي بمسافة ٧٠ كم، وتبعد عن بغداد مسافة ١٩٠ كم، يبلغ عدد سكانها ١٢٠ إلف نسمة كما يوجد العرب الاقحاح كالمحامدة والبوفهد والجواعنه وغيرهم. أما سكان القضاء بأجمعه (اي مدينة هيت والنواحي والقرى التابعة لها) فيبلغ سكانها أكثر من ٥٠٠ إلف نسمة، تعد من أهم مدن التاريخ الإنساني القديم، كانت من مدن المناذرة، يكثر في مدينة هيت بساتين النخيل والفاكهة وهي ذات خيرات واسعة.

قلعة هيت

تلك القلعة .. تحمل الكثير من المعالم التاريخية حيث توجد أقدم ثالث قلعة في العالم في مدينة هيت ، ويتفق المؤرخون على ان قلعة هيت هي واحدة من القلاع الثلاث في العراق مثلها مثل قلعتي اربيل وكركوك.. حيث توجد أقدم ثالث قلعة في العالم في مدينة هيت وما تبقى الآن من هيت القديمة هو القلعة التي تقع على الجهة اليمنى من نهر الفرات والتي مازالت أطلالها تنتصب بشموخ تحكي قصة أجيال خلت لأقدم حضارة عرفتها الإنسانية في موطن هيت.

خصوصية لقلعة

هيت لها خصوصيتها رغم التباين في وجهات النظر فمنهم من قال أنها قائمة على تلة من الأرض قام الناس ببناء بيوتهم عليها حفاظاً على أرواحهم وممتلكاتهم من فيضانات النهر المدمرة، وذهب آخرون إلى وجهة نظر مغايرة تقول أن القلعة تكونت نتيجة لتراكم أنقاض البيوت بعضها فوق البعض لقرون خلت وهذا الرأي هو الراجح باعتبار أن سقوف تلك البيوت متكونة من طبقات من الطين بارتفاعات متباينة ومطلية من الأعلى بالقير المتوفر من خلال العيون المنتشرة في المدينة ومن قائل إن سبب ارتفاع القلعة هو إن الناس وعلى مر العصور كانوا إذا آ ل بيت احدهم إلى السقوط نقضوه وأقاموا على أنقاضه بيتا جديدا وهذا الرأي يبدو قريبا من روح أهل المدينة من المهتمين بالتاريخ لها يقول الحاج نجاح ساسون- ينحدر من عائلة يهودية معروفة في هيت وقد اسلم عام ١٩٨٧ واصدر كتابا عن تاريخ هيت - إن الرأي القائل بتراكم البيوت بعضها فوق بعض له ما يؤيده من وجود سراديب في داخل القلعة تفضي بك إلى أسفلها، وتتكون القلعة من بيوت تتراوح مساحاتها ما بين ٢٠ إلى ٨٠ مترا وتتميز أزقتها بالضيق إذ يبلغ عرض الزقاق من ١،٥ إلى ٢ متر ومع الضيق الواضح في البيوت والأزقة إلا إن الطرز المعمارية في هذه القلعة ما زالت واضحة لتؤكد تعاقب أجيال كثيرة عليها. هل يعكس هذا التقارب بين الأزقة وبين البيوت تلك الروح الحميمة التي كانت تسود الناس آنذاك والتي ماتزال الآثار بادية إلى اليوم في رقة الشخصية الهيتية فهي طيبة القلب ؟و يعكس هذا التقارب خوف الناس المستمر من الغزوات والحروب والغارات

والسبب الرئيسي لاندثار الغالبية العظمى من هذه البيوت هو الكثافة السكانية الكبيرة ولان الكثير من مساحاتها يتراوح بين (٢٠-١٠٠) متر مربع على أكثر تقدير والتي تبدو وكأنها متداخلة مع بعضها وأزقتها ضيقة لاتتعدى من (١-٢) متر.

الأزقة الضيقة هذه هي آثار ما تبقى من آثار القلعة وهذه خنادقها، ويبدو أن كانت منيعة جدا إذ وبالرغم من ذلك لاتزال مجموعة كبيرة من العوائل تقطن فيها حيث يقع ضمن القلعة

جامع الفاروق

الذي تم بناؤه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ومازال قائماً لحد ألان بمئذنته التي لايوجد لمدرجاتها مثيل حيث إن المدرجات (البايات) تشكل كل أربعة منها سلماً لتكون أخيرا شكلاً

دائراً بزاوية قائمة ويستقطب الكثير من الزائرين لأداء الصلاة في هذا الجامع تبركاً رغم الجوامع الكثيرة الموجودة في هيت.

وفي هيت حيث مر جيش سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه في هيت في معارك الناصر لدين الله أبوسليمان ومعاركه وغزواته على مقربة من هيت في معارك (الأنبار – وعين التمر – والحيرة) ، وحفر الخنادق ، وقاتل الفرس والساسينين والنصارى العرب والعجم والمجوس ، وفي تلك الحقبة من عصر صدر الإسلام ولى الخليفة الثاني الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. أحد الولاة على هيت ، وبني بها منارة الفاروق ، والتي مازال حتى الأن شاخصة رغم تقادم القرون والسنوات

سور القلعة

يحيط بالقلعة سور ومن خلف السور خندق ليكونا حصناً منيعاً لحماية المدينة ويضم السور أربعة أبواب هي باب السنجة والغربي والشرقي والسور. هي أبواب تغلق بعد المغرب، عمر القلعة أكثر من ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

وان الباب الغربي يتكون من بابين احدهما أعلى ارتفاعاً وعرضاً من الأخر وفوق كل واحد منها قوس لمنع الغزو ومراقبة السفن والمارة في النهر ويقال ان المدينة كانت محاطة بالمياه من ثلاث جهات مما يسهل على أهلها الدفاع عنها.. الذي كان يعتليه حارس يضع تحته آلة
ضاغطة تصدر أصواتا عند ضغطها لتنبيه من في داخل القلعة عن حدوث أي خطر

كما تضم قلعة هيت المدينة التاريخية الكثير من أضرحة الأئمة الصالحين ومنها ضريح نبي الله أيوب (رض) كما تضم قبوراً لأربعين من الأولياء والكثير من الآثار والكنوز التاريخية حيث لم تمتد اليها يد التنقيب بعد..

الموروث الشعبي

يقول احد المؤرخين هيت القديمة القلعة بالعامية أحنا نسميها الولاية،الولاية بنيت على شكل طبقات كل ما تنهّد كل فترة من الزمن تتجدد وتنهّد تبقى الأنقاض، عند الوقوف على أطلال القلعة تشاهد نهر الفرات وجزره المخيفة هناك، ترى ماذا يوجد خلف هذه الأدغال؟ ولماذا لا يوجد طريق للدخول إلى هذه الجزر؟ يقول المؤرخ موجود عندنا جزيرتين جزيرة الفليوي غرب هيت حوالي ١٠

كيلومتر غرب هيت، وجزيرة الحويجة أكو عندنا منطقة غرب هيت من منطقة العطاءات، يوجد جسر قصر سادة ولا تزال أطلاله قائمة ولكنه قديم ومتهالك ينتهي بالصحراء على اليمين.
وعلى كل حال فيبدو إن حب الناس لمدينتهم له ما يبرره. ويتفق الجميع على إن مدينة هيت القديمة تتكون من الولاية وهذا الاسم الثاني للقلعة حيث تنتصب فوقها منارة عالية تعرف باسم منارة الفاروق ويعتقدا لناس إنها موجودة هنا منذ زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إما الجزء الثاني الذي تتكون منها لمدينة فهو (القلقة) سالت الناس عن سبب تسميتها بهذا الاسم وانهالت علي الأجوبة كثيرة متعددة تعدد المعاني فمن قائل إن سبب التسمية يعود إلى إن غالبية أرضها تتكون من الحجر الصغير (القلق) ومن هنا جاءت التسمية، وهناك آخرون يرون إن سبب التسمية راجع إلى افتقار القلقة لسور يحميها من غارات الأعداء المحتملة لذلك يظل الناس في قلق وخوف، وهناك من ارجع السبب إلى حركة أهل المدينة المستمرة من والى القلعة كلما أحسوا بالخطر قريبا منهم.

الشكل الدائري للقلعة

كانت قلعة هيت بنيت على شكل شبه دائري ومحاطة بخندق وسور بنيت له ثلاثة أبواب هي الباب الشرقي والباب الغربي وباب السنجه الذي يواجه النهر حيث يدخل منه أهل القرى والأرياف القادمون بطريق النهر من الضفة الثانية ، وكان الخندق والسور يحميان المدينة من الغزاة والطامعين إضافة إلى ما يؤديه من تنظيم لحركة التجار والزوار القادمين إليها وتمكين السلطات من جباية رسوم الدخول إليها أو منع الأشخاص المشبوهين ، وكانت هذه الأبواب توصد إمام حركة الدخول أو الخروج ليلا.

شوارع المدينة

أما شوارع المدينة فهي ضيقة وتكفي للمارة والحيوانات ويسمح بعضها للعربات التي تجرها الحيوانات بالمرور وكانت تخلو من الشوارع العريضة . ومن الملاحظ على شوارع القلعة إضافة لضيقها أنها متعرجة حيث يندر وجود زقاق مستقيم فيها وتكثر فيها الأزقة غير النافذة والتي تمكن من السيطرة على محلات المدينة المختلفة إثناء الفتن والاضطرابات أو في حالة تسلل الغزاة إلى داخلها وقد جاءت أزقة وطبقات المدينة مراعية للعوامل المناخية والرغبة في توفير نوع من الخصوصية للبيوت المشتركة في الطريق . ويبدو أن السور الذي كان يحيط بالمدينة قد اثر على

اتجاهات ومقاييس الشوارع والأزقة والوحدات السكنية فيها مما اثر بدوره على استغلال مساحة المدينة استغلالا مكثفا عن طريق تقلص مساحات الشوارع والبيوت والتوسع العمودي مثل إنشاء بيوت ذات طبقتين وإنشاء السراديب فيها للاستفادة منها في خزن المواد الغذائية أو القيلولة فيها أيام الصيف الحارة

وكان سوق المدينة يمتد على طولها من الباب الشرقي إلى الباب الغربي وتميزت بعض شوارع المدينة بوجود (السقيفة) التي كان الغرض منها استغلال المساحة فوقها وحماية بعض الشوارع من العوامل الجوية وكانت طرق وأزقة المدينة مكسية بطبقة من القير الذي يتوفر في المدينة بكثرة ولكن هذه الطرق والأزقة تخلو من المجاري المغطاة وكانت القناديل النفطية الوسيلة الوحيدة لإنارة الطرق والأزقة وكان جامعوا النفايات يجوبون المدينة لجمع القمامة على ظهور الدواب أما توزيع المساكن في المدينة فقد كان متأثرا بما يوفره هذا الموقع أو ذاك من مكانه اجتماعية لسكانه وغالبا ما كانت الدور الواقعة على ضفة النهر في مركز المدينة هي المفضلة لذلك فقد تركز سكن الأغنياء فيها .

المصادر والمراجع

١. السيد عبد العزيز سالم. في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس ، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٨ م

٢. محمد محمد الكحلاوي. آثار مصر الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٤ .

٣. جون باجوت جلوب. إمبراطورية العرب، تعريب خيري حماد ، طبع دار الكتاب العربي بيروت: ١٩٦٦ م.

٤. . ناصر خسرو.،سفر نامة، رحلة ناصر خسرو، نقلها إلى العربية ، يحى الخشاب ، دار الكتاب العربي الجديد ،ج١،(بيروت ،١٩٦٧) .

٥. عادل سعيد بشتاوي.،الأندلسيون المواركة مطابع انترناشيونال برس- القاهرة، ١٩٨٣ .

٦. ابن سعيد المغربي.، المغرب في حلى المغرب ج ١ ، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف ، بلا.

٧. زنغريد هونكة.،شمس العرب تسطع على الغرب او اثر الحضارة العربية في أوربا ، نقله عن الألمانية ، فاروق بيضون ،وكمال الدسوقي ، مراجعة ووضع حواشيه ،مازن عيسى الخوري ، دار الجبل ، بيروت ، ودار الافاق الجديدة ،بيروت ،بلا.

هوامش البحث

١ . السيد عبد العزيز سالم. في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس ، ص ٢٣٥
٢ . انجريد هونكة.،شمس الله على الغرب ص ٣٦٣
٣ . محمد محمد الكحلاوي. آثار مصر الإسلامية ص ١٥٠
٤ . جون باجوت جلوب. إمبراطورية العرب ، ص ٤٧٣
٥ . . ناصر خسرو.،سفر نامة ج ١ ص ٩٠
٦ . ناصر خسرو.،سفر نامة ج ١ ص ٤٢
٧ . ناصر خسرو.،سفر نامة ج ١ ص ٤٧
٨ . عادل سعيد بشتاوي.،الأندلسيون ص ٢٩٠
٩ . ابن سعيد المغربي.، المغرب في حلى المغرب ج ١ ، ص ٢٩١
١٠ . ابن سعيد المغربي.، المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ١٦٠